عهود الظلام

للأستاذ ابراهيم الوائلى

من قصور رحيبة الأفياء ... وليال مجنونة حمراء
فتنة الحالمين والندماء ... نهزة العابثين فى الظلماء
من كؤوس تمج بالصهباء ... وثغور تمرغت بالدماء
من ثياب ترف بالأشذاء ... تتحدى النجوم بالأضواء
من صدور محمومة الأهواء ... ونحور عوج باللآلاء
ونهود عربيدة خرساء ... تتنزى على رؤى الخيلاء
كان هزء الطبيعة الحمقاء
بالجماهير من بنى الإنسان

• • •

من بقايا هيا كل جوفاء ... نحتت من حجارة صماء
فى حياة مجنونة رعناء ... تحسب المجد فى فتون المرائى

Draper يجيب عن هذا وهو يصف أوربا إبان القرون الوسطى ، يقول وقوله واضح الدلالات : « كانت القـــارة مغطاة تقريبا بالغابات الكثيفة (بقصد لطول ما أهمل الناس الزراعة) ، وكانت المستنقعات تحيط بالمدائن والأديرة ، وكانت تتصاعد منها روائح مهلكة ترمى الناس بالموت . وفى باريس ولندن كانوا يتخذون المساكن من الخشب والطين المخلوط بالتبن والقصب . ولم تكن فيها نوافذ ، وحتى بعد اختراع آلات النشر الميكانيكية لم تكن أرضيات المساكن من الخشب . أما البسط فلم يكونوا يعرفونها ، وكانوا يستعيضون عنها بالقش يفرشونه على الأرض . ولم تكن المداخن معروفة لديهم ، فكان الدخان يتصاعد من ثقب فى سقف الدار بعد أن يجوس خلالها معرضا أهلها لكل خطر . ولم يكن الناس يعرفون النظافة ما معناها ، وكانوا يلقون بأحشاء الحيوان وفضلات الخضر تجاه بيوتهم فى أكوام تنبعث منها ريح متلفة . وكان الرجال والنساء والأطفال يحتشدون للنوم فى حجرة واحدة ومعهم فى حالات كثيرة حيواناتهم المنزلية ، ووسط هـــذه الفوضى الأسرية كان من المستحيل أن تظفر الفضيلة والحياء بشىء من الاهتمام » [٢] ويمضى المؤلف فى وصفه مشيراً إلى عدم وجود المجارى وكيف كانت تلقى المياه والأقذار فتصيب المارة ، وكيف كانت الشوارع مترية ضيقة مظلمة [٣]

وبعد ، فلسنا نكتم أننا شديدو الإيمان بالأثر الصالح الذى تستتبعه إحاطتنا بأساليب الغرب فى علاج مشكلاته الاجتماعية ، ولكننا مع ذلك نلح فى الدعوة إلى التوفر على دراسة الحضارة الاسلامية ، وبخاصة فى جوانبها الاجتماعية . ندعو إلى ذلك لا ابتغاء معلومات فحسب ، فالمعلومات وحدها قد تكون ميتة ، ولكن استيحاء التراث أثبت حيويته وفاعليته ، ولا ندعو إلى ذلك بدافع من عصبية وإنما قضاء لواجب العلم والتاريخ والانسانية [٤]

لبيب السعيد

---

١ ــ اللباب فى شرح مختصر القدورى ص ٢٠٢

٢ ــ Les conflits de las Science et de la Religion P109, 191

٣ ــ نفس المصدر

فى وسام مذهب ووداء وضروب النعوت والأسماء
من صروح منيعة شماء ساخرات بالبؤس والبؤساء
من نفوس حقيرة سوداء ورؤوس مريضة بلهاء
خلقتها سياسة الدخلاء من هباء وذاك شر بلاء
لم يعد فى الحياة أى رجاء
لشعوب تعيش كالديدان

• • •

من بروج تشاد فوق الجماجم حافلات بكل غض وباسم
غرف كالخيال فى رأس حالم وأفانين من حصيد المغانم
هى فى موكب الحسان الكرائم وهج الشمس ذوبته النسائم
تتحلى به (المذارى) النواعم فى نحور رقيقة ومعاصم
وأكف ندية ومباسم كزهور ترف بين الكمائم
تحسب الطهر من بقايا المآثم وتخال النهى خرافات واهم
عصفت بالضمائر شتى المظالم
كالأعاصير فى بقايا دخان

• • •

من قوانين شرعت ومحاكم وحدود تنوعت وعواصم
وزعامات مستبد وآثم سابح فى قراءة الشر هائم
فإذا الحق أن تداس المحارم بين مستضعف على الذل جاثم
ومقيم على استلاب الغنائم من عراة على الرمال سوائم
أثقلتهم حياتهم بالمغارم بالتى لا يردها سخط ناقم
من شيوخ تدثروا بالمآثم لم يهيموا بغير حل الطلاسم
كان أفق الحياة أسود قاتم
فى شعوب تنوء بالحرمان

• • •

من وحوش مجنونة الخطوات تتشهى حتى بقايا الرفات
لم تدع فى الخرائب الموحشات غير أشباح أعظم نخرات
من جياع على الصخور حفاة كقبور نمج بالأموات
فإذا بالجنان كالفلوات وإذا بالحياة مثل الممات
من جناة مدمرين غزاة وطغاة مخربين قساة
سلطتهم سياسة الفلتات فى عهود الظلام والكبوات
قد ركبنا فكان عهد سبات
وأفقنا فكان عهد هوان

• • •

من ضلالات أحمق مأفون مستهين بكل شرع ودين
وضراعات أبله مسكين يتخطى السنين بعد السنين
وهو فى صمته الطويل المهين من سياط تنث فوق المتون
وسجون تقام حول سجون ليس فيها سوى الظلام الحزين
وانطلاقات زفرة وأنين يتلاقى بها دخان الجفون
من قوى بيطشه مفتون وأسير مكبل موهون
جن ظلم الحياة شر جنون
بالألى يركبون الأوثان

• • •

من أراجيف عالم محموم يتغنى بنافثات الجحيم
حامل فى يد قوى التحطيم وبكف مخدرات السموم
بين وعد مزيف موهوم وغد غامض الخطا مزءوم
من مدل بطيشه المذموم تزدهيه مواكب التفخيم
فهو فى نشوة الخيال الأثيم يحسب الشمس من صغار النجوم
من شقى معذب محروم مستغيث بصمته المكلوم
مزق العدل كل عات غشوم
فتلاشى كضحكة النشوان

• • •

أيها الركب طال عهد الحداء والسرى والطريق والظلمات
أنت تطوى مجاهل الصحراء بين عصف الرياح والأنواء
أترى تستريح بعد عناء ونضال مكلل بالدماء
فلقد طال منك فى البيداء تعب لم يزدك غير بلاء
أيها الركب رب ليل شقاء يتوارى بلمحة من ضياء
فترقب لعل فى الأجواء
قبسا يستجيب للحيران

القاهرة — ابراهيم الوائلى